المضيفات والممرضات
في
الشعر المعاصر

نص المحاضرة التي ألقاها الاستاذ عبد الرحمن المعمر عضو نادي الطائف الأدبي بمقر النادي ليلة الاربعاء ٢٤/٢٥ /١١/١٣٩٦ هـ .



مطبوعات نادي الطائف الأدبي

(هـديـة)

عبد الرحمن المعمر

المضيفات والممرضات في الشعر المعاصر



ليست هذه محاضرة وانما هي خاطرة أدبية عنت لي وخطرت ببالي وأنا أقلب بعض ألوان من الشعر وشيئا من نثر قليل • فقد رأيت تشابها كبيرا بين المستشفى والطائرة وتوالفا غير منكور بين المضيفة والممرضة • وشبه اجماع بين نزلاء المشافي وزوارهم ومرافقيهم وركاب الطائرات ومستقبليهم أو مودعيهم على تصرفات ونظرات ليست كلها بريئة • وهذه طائفة من عناصر التشابه •

● يحجز الناس سرزا بالمستشفيات **ومقاعد** بالطائرات ويتصلون قبل الحجز وبعد •

● يتمنى الناس لمن يدخل المستشفى السلامة والخروج معافى ولمن يدخل الطائرة **النجاة والوصول** سالما •

● يحضر القادم للمستشفى معه حقيبة **ملابس** وأدوات حلاقة وأمشاط شعر وفرش أسنان **ومناشف وكذا** راكب الطائرة **يصحب معه بعض اللوازم اليومية للاستعمال** في الجو •

● تقدم الشوكلاطة والحلويات **ليمصها ركاب** الطائرات ويهدي الزوار للمريض **علب الحلوى والعصير** يوزع على من يزوره ويأكل **ويشرب منها في ساعات** الخلوة •

● ينام الانسان ويشخر **بالطائرات وكذا** بالمستشفيات ويحدث الناس اذا استيقظ بما **مر عليه ورأى** في المنام من أحلام •

● **كثيرا ما** نسمع عن أناس لا يحبون السفر بالطائرة بل يخافون من دخولها وهي واقفة **كما يقول** الشاعر :

« أركب الليث ولا أركبها » •

ويتحملون وعثاء السفر بالبر أو دوار **السفينة** بالبحر ومثلهم قوم آخرون لا يحبون الذهاب الى المستشفيات

مهما كانت الاصابات ويتحملون الكي بالنار ومعالجة الكسور بالاخشاب والجبائر ومداواة الصدر والبطن والرأس بالنشوق والصعوط والمروخ والبخور ويجدون لذة عجيبة في تحمل كل هذا العناء ويهربون من تناول ملعقة من الدواء أو وخز ابرة من يد ممرضة حسناء .

● يحتفل الناس بوصول المسافر وخروج المريض ويفرحون ويحضرون للسلام عليهما وتهنئتهما بالسلامة ودعواتهما للولائم والاكلات .

● بعض النساء يلدن بالمستشفيات وأخر جاءهن المخاض وهن يعتلين متن الريح مسافرات .

● يعطى المرء اسعافا بالمستشفى وفي الطائرة يتداركون المصاب بالاكسجين وسريع العلاج .

● يقدم الطعام والشراب في أطباق نظيفة على عربات تدفع بالايدي وتسير على عجلات بين الدهاليز والممرات هنا وهناك .

● يكثر نزلاء المستشفى وركاب الطائرة من ضغط الاجراس ولمس أزرة اللمبات رغبة في تكرار الطلبات وتكرار النظر معا ولو شاؤا لطلبوا مرة واحدة ولكنه الخبث والمكر من البعض والرغبة في التمتع بالنظر الى بدائع صنع الله بالجملة والقطاعي .

● الصحف والمجلات تسلية المسافر والمريض والسرر والكراسي والسلالم والنقالات منظر غير مستنكر في الاثنين .

● توحيد زي العاملات في الجو والارض ووضع أوسمة وشارات على الاكتف والرؤوس .

● يتعارف بعض الناس لاول مرة في المستشفيات أو بالطائرات وقد تتطور هذه المعرفة الى علاقة وصداقة متينة يكون من نتيجتها تجارة رابحة أو زواج موفق أو اصلاح بين متخاصمين أو غير ذلك .

● تدرس العاملات في المشافي والطائرات العلاقات الانسانية وطرق التودد الى الزبائن والرفق بالمرضى وتحمل مطالبهم الكثيرة وممازحاتهم ومماحكاتهم ومعاكساتهم السمجة ولكن الى حد « فليحذر الذين يبالغون في المعاكسة والمزاح أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » .

● الممرضات والمضيفات من أعرف الناس بالناس فهن اللائي يرين الناس في الكوارث والفواجع ومواقف الخوف فيعرفن كيف يجزعون أو يحتملون وكيف يفزعون أو يصبرون وكيف يضعفون أو يقوون وكيف يتجلدون أو ينهارون أما خارج المستشفى وخارج الطائرة فكلهم شجاع وكلهم قوي وكلهم ليث غضنفر وأسد هصور .

● يدخل المرء المستشفى وقد لا يخرج حيا ويركب الطائرة وقد لا يصل سالما . ويكون في السرير تحت العلاج القاسي يغذى بأنابيب ويخرج منه البول بواسطة الشفط وحالته بين اليأس والرجاء ومع هذا نلاحظ أولي العزم من المرضى يحملقون في الممرضات وهم في تلك الحالة .. والمسافر يكون معلقا بين السماء والارض يتأرجح بين الرعب والدهشة قد شد بالحزام فيقرأ آية الكرسي ويتمتم بالمعوذتين وأحيانا ينظر الى المضيفة خلسة بطرف العين .

والان تعالوا نطف مع بعض الشعراء ونسبح بأجنحتنا في السماء ثم نهبط الى الارض .

في عام ١٩٥٩ سافر الى دمشق طائفة من شعراء مصر لحضور مهرجان الشعر الذي أقيم بسورية وفي جوف الطائرة كانت المضيفة الحسناء « فاندا » تخطر بين الصفوف بهندامها البديع وقوامها المشوق ووجهها المشرق وثغرها البسام فتخلق جوا رقيقا مشبعا بالاريج المسكر وتهاويل الاحلام المبهجة وكانت ابتساماتها الوديعة مبعث الامن والطمأنينة في النفوس .

وكانت حلوياتها التي توزعها على الركاب تنسيهم محاذير الشر وكان سمتها الباهر الذي يشبه سمت الملائكة في هذا الافق الشعري الموشى الذي نحس فيه قربا من الملأ الاعلى والذي يؤمن فيه الكافر ويتقي الفاجر ، يضفي

على القلوب بشاشة الايمان ويصلها بمصدر الجمال وخالق الجمال ومحب الجمال البارىء المبدع المصور . **تبارك** الله أحسن الخالقين .

كانت ـ فاندا ـ تقدر ما وهبها الله من سحر وفتون وكانت تعرف أن هذه العصابة التي تناوشتها من كل جانب هم شعراء يستهويهم الجمال ويدركون من مفاتنه ما لا يدركه غيرهم .

وأخرج أحدهم ورقة كتب فيها الشاعران محمد فوزي العنتيل ومحمد محمد علي قصيدة مشتركة :

يا حلوة كالسكر
وغضة كالزهر
تخطري تخطري
فوق الربيع الاخضر
وخالطي أرواحنا
مثل نسيم السحر
يامشرق النور الذي
هفا اليه بصري
وجنة الخلد التي
أهدي اليها عمري

ومرت الورقة على جماعة آخرين من الشعراء فأضاف اليها علي أحمد باكثير قوله :

رحماك شاعر هنا
جودي له بالنظر
جودي بنصف قبلة
تنقذه من سقر
سافر يبغي وطرا
وأنت كل الوطر

ومرت الورقة على الاستاذ علي الجندي فنظم قصيدة طويلة نختار منها هذه الابيات :

رعاك الله يا « فندا »
وحاط جمالك الفردا
وصان محاسن أهدت
الى أكبادنا الوجدا
ولا برحت عنايته
«لطيرك» في السرى جندا
وأجراه على الاقبال
أما خب أو شدا
رأينا الحسن في وجه
تجلى كوكبا سعدا
فكبرنا وسبحنا
وأزجينا له الحمدا
وقلنا هذه حوراء
شاهدنا بها « الخلدا »

وقال الشاعر عبد الرحمن صدقي بعد هبوط الطائرة وكأنه يودعها ويودع مضيفتها اللطيفة :

مضيفة تخطر في الاعالي
كأنها الملاك في خيالي
لطيفة الخطوة والتثني
في غير ما كبر ولا اختيال
بسمتها الحلوة في حياء
طارت بعقلي وقضت خبالي
أنت التي أعليت من تعليقنا
فزاد أميالا على أميالي
يا ليتنا في الجو ما برحنا
لم نهبط الارض من الاعالي

وهكذا يتمنى الشاعر لو بقي محلقا في الجو مع من أحب قريبا من عالم الصفاء وسماء الملائكة حيث لا حاسد ولا عذول مبتعدا عن الارض وعالم الطين حيث الصدام والصراع الرهيب بين الآدميين .

ونترك ـ فندا ـ وحزبها لتلتقي مع الشاعر السعودي محمد بن علي السنوسي في قصيدته التي عنوانها

ـ شد الحزام ـ وركوب الطائرة أسر واعتقال فالانسان أسير المقعد لا يستطيع التحرك الا باذن من جاره وفك لحزامه فاذا انفك من أسر الحزام والمقعد وقع في أسر آخر وقيد معنوي ذلك هو فتنة المضيفات الحسناوات فالله ما أعجب هذه الحياة التي طوقت الانسان بالقيود الحسية والمعنوية في الارض والجو ٠

رسمت على الشفتين بسمة
جذابة كشعاع نجمه
ورنت رنو الظبي أبصر
في يد القناص سهمه
تتزاحم الالحاظ حول
لحاظها والحسن زحمه
ومشت فما خطو الحمام
وما اليمام يهز جسمه
تهتز أعطافا وتغري
فتنة وترق خدمه
وتكلمت فسمعت أرخم
نبرة وارق نغمه
تتساقط الالفاظ تحت
لسانها كعصير كرمه
شد الحزام تقولها
واقول لست أجيد حزمه
أنا خصم كل يد سواك
تشده وتفض ختمه
مدت أناملها تزيح
خصائلا كالليل ظلمة
فبدى ضياء الفجر
فوق جبينها نورا ونسمه
قلبي يحب وانما في
حبه خلق وحشمه
ويهيم بالغيد الحسان
ولا يبيح لهن حرمه

ونعود للشاعر عبد الرحمن صدقي فقد كان يكره الخروج للمطار في وداع أو استقبال ولكن مضيفة في الخطوط الجوية السورية جعلته يسعى للمطار طرفي النهار وزلفا من الليل لعله يراها أو يرى من رآها ٠

بنفسي سقيم الطرف مهضومة القد
جنوني بها سيان في القرب والبعد
فهل بك منه يا ابنة الشام بعضه
أو أني حمال لاهواله وحدي
لقد كان يمضي العام منذ لقائنا
وقلبي بليل من جهالته مردي
فما اختلفت بيني وبينك في الهوى
رسول ولا جادت رسائل بالرد
أيا جارة الوادي هواي كعهده
فهل أنت مثلي ما برحت على العهد
كرهت ركوب الريح من قبل موفدا
فأصبحت أسعى للمطار بلا وفد
وكان اتفاقا أن تطرقت للحمى
ولكن عودي للحمى اليوم عن عمد
أعاود فوق السحب حجي قاصدا
ولا علم لي ان كنت مبلغتي قصدي

والان وقد أعيانا التحليق والطيران فلنهبط الى الارض بسلام ـ فما طار طير وارتفع الا كما طار وقع ـ ولنتجه من المطار الى المستشفى لنزور شاعر العرب الكبير أحمد الصافي النجفي فقد طال مكثه في المستشفى وهو لا يريد الشفاء السريع لئلا يفارق من أحب ٠

بخديك أحببت زهو الورود
وفي مقلتيك عشقت الذبولا
اذا ما نظرت سبيت القلوب

واما نطقت سلبت العقولا

ينافس فيك العليل الطبيب

ويحسد فيك الصحيح العليلا

تمرض كفاك أهـل السقام

وحبك يولي الضنى والنحولا

عليلك ليس يريد الشـفاء

لئلا يكابـد عنـك الرحيلا

ولا يبعد شاعرنا النجفي عن نظيره صدقي فتحمل الالم بقرب الحبيب خير من الشفاء الذي يبعده عنه فهو لا يريد أن يبرأ حتى لا يبارح من نظراته تسبي القلوب ومسة منه تجري الكهرباء في الجسم ٠

مرض الحبيب فزرته

فمرضت من حذري عليه

وأتى الحبيب يزورني

فشفيت من نظري اليه

وأصيب الشاعر محمود سليم الحوت بكسور في الاضلع وشرخ في الجسم عطله عن الوثب والقيام ولكن من تقوم بتمريضه أنسته ذلك العذاب وكانت له عوضا عن نشاطه فتمد له يدها اذا رغب القيام وترفده بصدرها اذا مال وتعضد له اذا سار فلا تثريب عليه اذا هتف قائلا :

ممرضتي كدت أنسى المرض

وكسرا بضلعي وشرخا أرض

وأوجاع صدر وهي عظمة

وجرحا بداخله قد أمض

وآلام نفس تعـاف الرقـاد

وان كان جفني له ما غمض

كرهت انطراحي وليس الطريح

على ظهره كالذي قد ربض

اذا شاء نام قرير الجفـون

وان شاء كالليث وثبا نهض

فلولاك أنت ملاكـي الحنون

لضاقت بجسمي روحي مضض

لقد كنت لي شمس عمر جديد

وقد كنت لي عن نشاطي عوض

ونلتقي بالشاعر ابراهيم طوقان الذي هام بناعمة اليدين واستشفت مهجته بالغيد الحسان حتى قرر أن نظرة من الممرضة تشفي قبل ابرة الآسى ٠ وأقول يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا اذكر ما قاله الاخر :

ويلاه ان نظرت وان هي أعرضت

وقع السـهام ونزعهن أليم

ولكن شاعرنا المعلم ابراهيم يقول والله لواقترفت أعظم ذنب في الوجود ثم جاءتني بعده بعذر واه لغفرته لها على ما كان منها ولا أبالي ٠٠ ومن هنا صدق من قال ــ الحسن مرحوم ــ وكلما يفعل المحبوب محبوب ٠

يا حلوة العينين يا قاسيه

سرعان ما أصبحت لي ناسية

أما أنا فلست أنسى يـدا

ناعمـة تجـود بالعافيه

لئن شفي الطب ضنى عارضا

فمهجتي أنت لهـا شـافيه

وابرة الآسي على نفعهـا

أفعل منهـا نظرة ساجيه

تبثها عينـاك في أضلعي

فياضـة بعطفهـا آسـيه

تلأم قلبا نكـأت جرحـه

فعـاد يهـوى مرة ثانيه

وتطفىء النار التي حـركت

فأرجعتهـا زفـرة حاميه

قيصرة الحسن ألا أشـتكي

اليـك من جورك يا طاغيه

هل كـــان نسيانك لي هفوة

أم خطة اشراكهـــا خافيـه

ســـيدتي ذنبك مهمـــا يكن

تغفـره أعـــذارك الواهيه

ولطوقان في ملائكة الرحمة قصيدة أخرى شبه فيها الحمائم بالمحسنات الى المرضى وهو تشبيه جد موفـــق فالمرضة في مشيتها ونعومة ملمسها وبياض ثيابها ورقة صوتها تقترب من الحمامة كثيرا وتلتقي معها في أوصاف عدة · وأشباه متعددة :

بيض الحمائم حسبهن

أني أردد سجعهنه

رمز السلام والوداعـة

منذ بدء الخلق هنه

في كل روض فوق دانية

القطوف لهن انـــه

ويملن والاغصـــان ما

خطر النسيم بروضهنه

فاذا صلاهـــن الهجير

هببن نحو غدير هنه

يهبطن بعد الحوم مثل

الوحي لا تدري بهنه

فاذا وقعن على الغدير

ترتبت أســرابهنـــه

صفين طـول الضفتين

تعرجـــا بوقوفهنه

كل تقبل رسمهـــا

في الماء ساعة شربهنه

يطفئن حر جســومهن

بغمسهن صدورهنـــه

يقع الرشـــاش اذا

انتفضن لآلئا لرؤوسهنه

ويطرن بعد الابتراد الى

الغصـــون مهودهنـــه

تنبيك أجنحة تصفق

كيف كان ســرور هنّه

ويقر عينك عبثهن

اذا جثمن بريشهنـــه

وتخـــالهن بلا رؤوس

حين يقبـــل ليلهنه

أخفينها تحت الجنـــاح

ونمن ملء جفونهـــنه

كم هجنني ورويت عنهن

الهديل فديتهنه

★★★

المحسنات الى المريض

غدون أشباها لهنه

الروض كالمستشفيات ،

دواؤها ايناسهنه

ما الكهرباء وطبهـــا

بأجل من نظراتهنه

يشفي العليل عناؤهن

وعطفهن ولطفهنـــه

مر الدواء بفيك حلو

من عذوبة نطقهنه

مهلا فعندي فارق

بين الحمام وبينهنـــه

فلربما انقطع الحمائم

في الدجى عن شدوهنه

أما جميل المحسنات

ففي النهار وفي الدجنه

ونغادر الشاعر المتيم طوقان الى القاهرة ونلتقي بالشاعر السعودي الشيخ محمد بن بليهد حيث كان يستشفي من داء لم ينفع فيه نطس الاطباء وانما أجدى معه لمس كف – سعاد – وطلعة – فائزة – وهما ممرضتان مليحتان كانتا تقومان على خدمة الشيخ والعناية به فقد كان يأخذ علاجا بواسطة الجلسات الكهربائية فيحس اثر ذلك في الكتفين والركبتين · وكان يشاركه في العلاج بنفس المستشفى اللواء منصور العساف من رجال الجيش السعودي وهكذا اجتمع على الشيخ واللواء هز الكهرباء وانتفاض الشوق · نلاحظ ذلك في القصيدة الاولى التي نظمها الشيخ· وفي القصيدة الاخرى التي قالها أيضا على لسان صديقه منصور في الممرضتين نفسيهما :

رأيت غزالا في الضحى كامل الوصف
كوتني بنار في فؤادي وفي كتفي

فأما التي بالكتف تذكي بكهرب
وهاتيك تذكي بالملاحة واللطف

تفاءلت من كفي سعاد سعادة
وفائزة فوزا فطلعتها تشفي

خليلي هل تأسو المراض خريدة
بقامتها الهيفاء سهم من الحتف

لعمري ما دائي سوى نظراتها
وبلسمي الشافي لديها وما أخفي

وقد عالجوا نصفي بكف رقيقة
وبالسحر من عينيها أهلكوا نصفي

اذا طفقت كلتاهما في علاجها
رأيت المنايا من أمامي ومن خلفي

وما أنا الا في هواهم متيم
ضعيف القوى شيخ فهل رحموا ضعفي

وجاء في القصيدة الثانية على لسان زميله منصور العساف ·

اذا دعيناك فأهرج أيها القمر
هل عندكم من علاج الكهربا خبر

أما محمد قد زالت شكيته
وليس في كتفه مما شكا أثر

قال احترز من غزال كلما طلعت
فليس في عودها طول ولا قصر

اذا رأيت الثنايا الغر باسمة
هناك من بينهن الموت ينتظر

في ركبتيك ترى للكهربا أثر
يطير للقلب من جرائه شرر

وهكذا لم يستطع المدفع مع اللواء منصور ولا القلم مع الاديب محمد أن يقفا في وجه الحسن والجمال وأي قوة في الارض تستطيع أن تقاوم قوة الملاحة في الوجوه والجاذبية في الاجسام ·

فاذا جاءت مواكب الوسامة والجمال فلا عاصم في ذلك اليوم من أمر الله الا من رحم ·

الطائف – عبد الرحمن بن فيصل المعمر

من عصبة الادباء